حدود إسهام الرواية الشفوية والأركيولوجيا في كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء

د. الحسين عماري
أستاذ باحث في التاريخ الحديث
عضو الجمعية المغربية للبحث التاريخي
بني ملال – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
الحسين عماري ، حدود إسهام الرواية الشفوية والأركيولوجيا في كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع عشر ؛ ديسمبر ٢٠١١. ص ١٣ – ١٥.
(www.historicalkan.co.nr)

تقديـم إشكالي

تشكل البيبليوغرافيا بمختلف أنواعها الإطار المرجعي الذي يستقي منه المؤرخ ويؤسس عليه فرضياته النظرية وبناءه التاريخي ، ومن هذا المنطلق اعتمد الباحثون في حقل الدراسات الإفريقية – الذي أصبح يشكل مجالاً خصبًا وجديرًا بالإهتمام والمساءلة- على مادة مصدرية متنوعة ومتكاملة فيما بينها ، منها ما هو مكتوب ، وما هو مادي ، وما هو شفهي. فما هي إذن الأهمية التي تكتسيها الرواية الشفوية والأركيولوجيا كمصدرين من مصادر تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ؟ وما هي الإشكاليات التي يطرحها استغلالهما على المستويين المنهجي والموضوعي ؟.

كجواب على هذه الإشكالية ، يمكن القول بأن "معظم تاريخ إفريقيا يكتب اليوم اعتمادًا على الرواية الشفوية والوثائق المادية أي الكشوف الأثرية" ،[١] مما يدل على المكانة الرفيعة والإهتمام المتزايد اللذين أصبح النص الشفوي ونظيره المادي يحظيان بهما ضمن مصادر تاريخ إفريقيا.[٢] والرواية الشفوية ، هي "تلك الأخبار المتواترة عن أحداث تاريخية ماضية غير مدونة يتناقلها الأحفاد عن الأجداد ويتم تداولها داخل المجتمع الإفريقي من طرف أشخاص متخصصين عرفوا "بالكريو les griots".[٣] وهم حسب زكري درماني Zakari Dramani ينتمون إلى الصنف المحترف الذي يمكن أن نطلق عليه اسم " كاتب حوليات " ، أو مؤرخ رسمي تقليدي.[٤]

وتتجلى أهمية الرواية الشفوية كمصدر تاريخي أصيل ، في ما تتيحه للباحث من إمكانيات تجعل منها نصًا لا يقل مكانة وقيمة عن النصوص الأخرى يمكن إبرازها على الشكل الآتي:

- فهي المكمل الأساسي للنصوص والوثائق الأركيولوجية ،[٥] لكونها تقوم بتغطية ما يعتريها ويشوبها من نقائص ، كما بإمكانها أن تقدم وجهة نظر مغايرة.[٦]
- وهي أيضًا مصدر تاريخي أساسي يمكن اعتماده في إعادة بناء ماضي الشعوب التي تفتقر إلى رصيد مكتوب ، كشعوب إفريقيا السوداء التي "تقدس الكلمة وتعيش في عالم الإشارة وفي مضمون الذاكرة الجماعية".[٧]

هذا الإهتمام الذي أولاه الأفارقة للأداة الشفهية ، جعل أحد الباحثين وهو هامباتي با Hampaté Ba يرى أنه: "كلما مات شيخ إفريقي ضاعت مكتبة تاريخية لا تعوض" ،[٨] كما أنها أي الرواية الشفوية – على حد قول جان فانسينا J. Vansina- تساعد المؤرخ الإفريقي على "إدراك الأحداث من الداخل" ،[٩] ولأنها على عكس النص المكتوب تولي اهتمامًا بالغًا "لمهمشي التاريخ" ،[١٠] وتشكل عنصرًا من عناصر الثقافة الإفريقية.[١١]

غير أنه بالرغم من الأهمية التي تكتسيها الرواية الشفوية كمصدر من مصادر تاريخ إفريقيا ، فإن استغلالها يطرح إشكاليات منهجية وموضوعية يتعذر علينا الإلمام بها جميعها ، ومع ذلك يمكن أن نذكر بعضها على النحو التالي:

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

إشكالية الذاتية والموضوعية أو تداخل الأسطورة مع الحقيقة التاريخية

وفي هذا الإطار يرى عبد الله العروي أن "كل المرويات الشفوية ليست من قبيل التاريخ"،[١٢] ويضيف جرمان عياش "أن الرواية الشفوية تهم المؤرخ لا لكي يثبت الحوادث كما وقعت، وإنما للتعرف على الصورة التي كانت في أذهان الناس إزاء هذه الأحداث"،[١٣] مما جعل العديد من مؤرخي إفريقيا – قبل اقتناعهم بإمكانية الاعتماد عليها كمصدر من المصادر التاريخية – يبدون تشككهم في قيمتها المصدرية ومدى مصداقيتها ويشترطون تعزيزها بمصدر آخر.[١٤]

مشكل الرواية الشفوية الأساسي

هو أولاً جمعها ثم استغلالها باستعمال اللسنيات وإخضاعها لنقد تاريخي بناء[١٥] لاختيار الروايات التي من شأنها أن تشكل مصدرًا للتاريخ،[١٦] ولا شك أن استغلالاً من هذا النوع، أو بهذا الشكل يتطلب تكوينًا وعملاً ضخمًا،[١٧] وتوفر المؤرخ على سمات وخصائص متميزة من الصعب أن تتوفر فيه، لذلك لا نستغرب إذا وجدنا تناقضًا في مواقف الباحثين بخصوص هذه النقطة،[١٨] فهناك معارضون لفكرة الاعتماد على النص الشفهي كمصدر من المصادر التاريخية - وهم يركزون بالدرجة الأولى على النص المكتوب والحفريات – ويرون أنه في ظل غياب حجج مادية ملموسة ليس هناك تاريخ، لأن اعتماد المؤرخ على الرواية الشفوية من شأنه أن يقوده إلى مزالق.[١٩]

وهناك المدافعون عن الرواية الشفوية وقيمتها التاريخية، وهم ينقسمون إلى مجموعتين مختلفتين من حيث الطرح المنهجي:

(أ) فهناك المدرسة الأفرو – أوربية، وأنصارها – من أمثال Ki-Zerbo، Yves person J.Vansina، D.T.Niane، Boubou Hama، وHampaté Ba – لا ينكرون ما يطرحه استعمال الرواية الشفوية من إشكاليات، كمصداقية ومدى صحة ما تقدمه من معلومات، لكنهم مع ذلك يرون أنها تساعد على معايشة الماضي من جديد، لكونها أقرب إلى الأحداث التي ترويها،[٢٠] وتظل المصدر التاريخي الأساسي الذي يمكن اعتماده في إعادة بناء ماضي الشعوب التي تفتقر إلى كتابات،[٢١] وبذلك فإنه بالرغم من المبالغات التي تتخللها فهي تستحق مزيدًا من الثقة.[٢٢]

(ب) أما المجموعة الثانية، وهي المدرسة الأنجلو – سكسونية بزعامة مؤرخ علم السلالات الأمريكي Herskovits، فإن روادها لا يؤمنون بضرورة اعتبار الرواية الشفوية كمصدر لأبحاثهم ويشكون في مصداقيته.[٢٣]

ومن خلال كل هذا؛ ورغم الإشكاليات التي يطرحها استغلال الرواية الشفوية فإن هذه الأخيرة تبقى هي السند الضروري للمؤرخ – الغرب إفريقي – لكن توظيفها يستوجب اتخاذ الحيطة والحذر اللازمين، وإخضاعها لفحص دقيق،[٢٤] بل إن الأمر يتطلب أحيانًا تعزيز هذا النوع من النصوص بمصادر أخرى كالأركيولوجيا.[٢٥]

يرى عبد الله العروي "أن معظم تاريخ إفريقيا، أصبح اليوم يكتب اعتمادًا – على الرواية الشفوية وكذا- على الوثائق المادية أي الكشوف الأثرية"،[٢٦] وتعود هذه الأهمية التي أصبح البحث الأركيولوجي يكتسيها بالنسبة لتاريخ إفريقيا الغربية إلى كون النتائج التي ستسفر عنها التنقيبات والأعمال الأثرية من شأنها:

- أن تكمل المعلومات التي أوردها الجغرافيون والإخباريون، وتؤكد وتثبت مدى صحتها.[٢٧]
- أن تدخل تغييرًا جذريًا على الكم المعرفي المستقى من التاريخ المكتوب[٢٨] بتصحيح كثير من الأخطاء فيه، وإعادة النظر في كثير من الإثباتات.[٢٩]
- كما أن أبحاثا أركيولوجية معمقة ومتواصلة، يمكنها في ظل غياب معطيات إحصائية أن تكشف عن حقائق جد هامة تساعد على فهم الحياة الاقتصادية بإفريقيا الغربية خلال الفترة ما قبل الاستعمارية.[٣٠]
- أن البحث الأركيولوجي، يسمح لنا أيضا بتفادي الاختلاف الحاصل في تفسير وتأويل بعض النصوص.[٣١]

وبذلك، ونظرًا للأهمية التي أصبحت الأعمال والكشوف الأثرية تكتسيها بالنسبة للبحث التاريخي لاسيما منه الإفريقي الجنوب صحراوي – والأبحاث الحديثة بشكل عام – يتضح بشكل جلي مدى دورها ومساهمتها الفعالة في رفع المعرفة العلمية إلى مستوى أكثر دقة ووضوحًا.[٣٢] لكن رغم هذه الأهمية والمكانة التي أصبحت الأركيولوجيا تحتلها بالنسبة للكتابة التاريخية الإفريقية، ورغم أنها مؤهلة للإجابة على العديد من الأسئلة المطروحة، فهي لا تزال تعاني من مجموعة من المعيقات نذكر من بينها: النقص الحاصل في الوسائل والإمكانات – المادية والبشرية – رغم التقنيات المساعدة التي وضعت رهن إشارة الباحثين.[٣٣] وحاجتها الماسة إلى باقي العلوم الطبيعية منها والإنسانية.[٣٤]

خاتمة

من خلال كل هذا؛ يتضح إذن مدى الأهمية البالغة التي أصبح كل من النصين الشفوي والمادي يحظيان بها ضمن كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء كسندين لا غنى عنهما للمؤرخ الغرب إفريقي، إلا أن استغلالهما يطرح إشكاليات منهجية وموضوعية تحتم على الباحث اتخاذ مجموعة من التدابير الكفيلة بمساعدته على تجاوز تلك الإكراهات، وتعزيز مادته المصدرية المروية والمادية بالمكتوب منها، وكذا بنتائج بعض الأعمال والدراسات التاريخية التي تتوفر فيها شروط الكتابة التاريخية المعاصرة.

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

* مداخلة تمت المشاركة بها ضمن الندوة الوطنية التي نظمت برحاب كلية الآداب ببني ملال أيام ٢٥- ٢٦- ٢٧ أبريل ٢٠٠٦ حول الكتابة والتاريخ.

(١) العروي (عبد الله)،"علاقات المغرب بإفريقيا ملاحظات أولية". مجلة دراسات، ك.ا.ع.إ. جامعة ابن زهر، أكادير، مطبعة النجاح الجديدة، عدد٢، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص.٢١.

(٢) العروي (عبدالله)، مفهوم التاريخ، ج١، الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢، ص١٠٧.

(٣) الشكري (أحمد)، الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠. ر.د.د.ع. تحت إشراف محمد حجي، ك.ا.ع.إ. الرباط ١٩٩٠-١٩٩١، ص٤٠.

(4) ZAKARI DRAMANI, ISSIFOU: l'Afrique noire dans les relations Internationales au XVIs Analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhai p.24.

(5) Ibid, P.23.

(٦) جوتار(فيليب)، التاريخ الشفهي، ترجمة محمد حبيدة، الإتحاد الإشتراكي، عدد٤٧٨٧، ١٩٩٦/٩/١٨، ص١٢.

(7) ZAKARI DRMANI, ISSIFOU, Op.cit., PP.23-25.

(8) FAOUZI SKALI, le dialogue des racines, Amadou Hampaté Ba Al maghrib al afriqi n°1 janvier-juin 1992, publication de l'. des E.A, P.24.

(٩) العروي (عبد الله)، مفهوم التاريخ، ج١، ص ١٠٧.

(١٠) جوتار(فيليب)، التاريخ الشفهي...، ص١٢.

(11) SEKENE MODY,CISSOKO, traits fondamentaux des sociétés du Soudan occidental du XVIIs au début du XIXs , B.I.F.A.N .T.XXXI Série B n°1, 1969, P.4.

(١٢) العروي (عبد الله)، م.س، ص١٠٨.

(١٣) عياش(جرمان)، أي منهاج لكتابة تاريخ المغرب؟ مجلة أمل، التاريخ، الثقافة، العدد١، السنة ١ ١٩٩٢، ص١٠.

(14) JOZEPH KI- ZERBO, Histoire de l'Afrique noire d'hier à demain, Librairie A. Hatier, Paris,1978, P.17.

(15) ZAKARI DRAMANI, ISSIFOU, Op.cit., P.27.

(16) JOZEPH KI-ZERBO, Op.cit., P.17.

(١٧) جوتار (فيليب)، التاريخ الشفهي...، ص١٢.

(18) ZAKARI DRAMANI, ISSIFOU Op.cit., P.23.

(19) Ibid. P.25.

(20) SEKENE MODY CISSOKO, Op.cit., P.4.

(21) ZAKARI DI, Op.cit., P.25.

(22) SEKENE MODY, CISSOKO Op.cit., P.4

(23) Ibid-

(24)R. MAUNY, Tableau géographique de l'ouest africain au moyen age, In 4 memoire de l' I.F.A.N n° 16, DAKAR 1961? P.56.

(25) J. KI- ZERBO, Op.cit., P.18.

(26) Ki.Zerbo, (J): Histoire de l'Afrique noire d'hier à demain, P 18.

(٢٧) العروي (عبدالله)، "علاقات المغرب بإفريقيا ملاحظات أولية"، ص ٢١ - ٢٢. وليبرز التغيير الذي تحدثه الأركيولوجيا في كمنا المعرفي المستقى من التاريخ المكتوب، يستدل العروي بما أنجز من حفريات في بلدة تدغاوست بموريتانيا (ن.م، ص ٢٢).

(28) El Alaoui, (A):Op cit., p 5.

(٢٩) العروي (عبد الله)، م.س، ص ٢١.

(٣٠) زكري الدرماني إسيفو: "العلاقة بين المغرب وإمبراطورية سونغاي في النصف الثاني من القرن السادس عشر"، ص٢٥٨.

(31) Ki-Zerbo, (J): Opcit, p 165.

(32) Brignon, (J) et autres: Histoire du Maroc, P 18.

(٣٣) لعل أهم الأبحاث في هذا الصدد، ما قام به J.Devisse من حفريات، وما كشفت عنه التنقيبات الأثرية من مواد أساسية، لا يمكن للباحث الأركيولوجي أن يستغني عنها، من أهمها الخزف أو الفخاريات (رحمة الحريقي خزف سجلماسة وأهميته في التجارة الصحراوية، أعمال الدورة الأولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية: مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة- آثار وتراث منطقة تافيلالت- مركز الدراسات والبحوث العلمية- الريصاني، دجنبر ١٩٨٩، ص٣٨٧ – ٣٨٨). وعلى سبيل المثال، يمكن أن نذكر هنا أنه من خلال التحليلات المخبرية التي أجريت على عينات طينية بمختبر الفخاريات بليون (ن.م، ص ٣٨٩) وما عثر عليه من أنواع راقية من الخزف في العديد من المدن المغربية (كمراكش وفاس، حيث تدل الحفريات الأثرية أن هذه الأخيرة كانت تصدر مواد فخارية إلى بلاد السودان، إذ تم العثور على بقايا خزفية ملونة ومزينة بالرسوم في مواضع مدن سودانية وسيطة كغانة، وأوداغشت، وكاو، يرى رايمون موني أنها من صنع مغربي أو أندلسي(Mauny,).

(R):"Découverte à Gao d'un fragement de poterie émaillée du Moyen âge musulman". Héspéris-Tamuda-Rabat 1952 T 39, PP 514-516.

كما تم العثور في ملاحة تغازى على أجزاء خزفية من نفس الصنف أرخت بالقرنين (١٦) و(١٧)، وتبين أنها من الفخار الفاسي (Mauny, R:T. géog de l'ouest africain, P. 374) والسودانية/ الجنوب صحراوية – مثل أوداغشت، كاو... تبين بأن سجلماسة شكلت بالفعل مركزًا هامًا لصناعة الفخار، وأن هذا النشاط عرف رواجًا كبيرًا مما يدل على ارتباطه بتجارة القوافل (لحسن تاوشيخت، خزف تافيلالت خلال نهاية القرن (١٨) وبداية القرن (١٩) أعمال الدورة الرابعة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية: الوثائق المرجعية لعهد السلطان مولاي سليمان العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسلطان مولاي سليمان – الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد السلطان مولاي سليمان- مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني- دجنبر ١٩٩٢، ص ٢٦٤- ٢٦٥).

كما كشفت الحفريات – الإيطالية والمغربية والأمريكية- التي همت منذ سنة ١٩٧١ موقعي سجلماسة الأثري والقصبة السجلماسية أن صناعة الخزف بتلك المنطقة حافظت على استمراريتها وواجها ما بين نهاية القرن (١٧) ولاسيما خلال القرن (١٨) والنصف الأول من القرن (١٩). (ن.م، ص ٢٦٧ - ٢٨٥).

(34) Ki-Zerbo, J: op cit, P 18.

الدكتور الحسين عماري في سطور:

حاصل على دكتوراه وطنية بميزة مشرف جدًا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط ٢٠٠٣ في موضوع: "المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن ١٥ إلى القرن ١٨". صدرت له مجموعة من الأعمال في عدة دوريات ومجلات متخصصة.